البطولة بين الشعر الجاهلي واليوناني

دكتور محمد عبد الرحمن المسلوت

تصوير الشعر العربي لملامح البطولة العربية :

رسم الشعر العربي في الجاهلية ، بحرية واسعة ، خصائص النفس العربية في الجاهلية ، وصور الإنسان العربي ، إنساناً لا يعرف القيود ولا يخضع لدولة قاهرة في هذا المجتمع تتصادم الرغبات ويظن أي دارس لمثل هذا المجتمع أنه يسوده الظلم والفتك ، ولكن الأمر كان على غير ذلك في عمومه فعلى الرغم من عدم وجود دستور شامل أو قوانين محددة وعلى الرغم من نزعة الظلم الموجودة في نفس كل إنسان ، والتي عبر عنها الشاعر العربي :

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم

وبها يفتخر الآخر :

بغاة ظالمين وما ظلمنا ولكنا سنبدأ ظالمينا

من يقرأ هذا الشعر يظن أن الجزيرة تسودها الفوضى وكل يظلم أخاه إذ يردد العربي أنه إذا لم يجد من يغير عليه أغار على أخيه .

وأحياناً على بكر أخينا إذا ما لم نجد إلا أخانا

فكل يريد لنفسه الحياة وكل حريص على ما يقيم أوده .

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

إن هذا الشعر وأمثاله يعطي صورة متناحرة متنافرة تتقاتل لسبب

ولغير سبب . يستخدم كل إنسان وسائل الظلم من أجل المصالح الخاصة وكل يستعد بما يدفع به عن نفسه فيعلن العربى عن هذه العدة بقوله :

متى تجمع القلب الذكى وصارما وأنفا حميا تجتنبك المظـــالم

هذه إحدى جوانب الصورة فى الجزيرة العربية ، فمن الذى حفظ هذه الجزيرة من التدمير مع هذه الغريزة الظالمة المتأصلة ؟

إن ذلك يرجع إلى غرائز أخرى لونت جوانب كثيرة من الصورة العربية. فمنها : الفدائية من أجل حماية القبيلة والأعراض وسائر الحرمات . فدائية ترخص أمامها النفس مما جعل عريزة الظلم تضمحل بجانب غرائز الوفاء والإباء والشرف . فهذا الحصين بن الحمام المرى يعلن فى فدائية :

تأخرت أستبقى الحياة فلم أجد لنفسى حياة مثـــل أن أتقدما
فلسنا على الأعقاب تدمى كلومنا ولكن على أقدامنا تقطر الدما
نفلق هاماً من رجال أعزة علينـا وهم كانوا أعز وأظلما

الحصين ومن معه فيهم عزة وفداة وإباة يجعلهم يحافظون على أمجادهم أمام المجموعات الأخرى وإن كانوا أعزة عليهم إلا أن العربى لا يبيت على ضيم وهم يمثلون بذلك وحدات كبيرة لكل أمجادها وتراثها تفديه بالنفوس ، يصور ذلك بشامة بن حزن النهشلى :

إن نبتدر غاية يوماً لمكرمة نلق السوابق منـا والمصلينا
وليس يهلك منا سيد أبـدا إلا أفتلينا غلاما سيدا فينا
إنا لنرخص يوم الروع أنفسنا ولو نسام بها فى الأمن أغلينا

فنفوسهم غالية فى السلم ، ولكنها رخيصة تحت راية سيدهم الذى يقودهم إلى المكارم فيكونون أسبق الناس تنافسا على الأمجاد وهم السابقون الأوائل أوهم المصلون الذين يلون الأوائل السابقين .

وبهذا يبين بشامه أن الأمر ليس أمر فوضى ولا ظلم وإنما أمر قبائل متعاطفة فما هدف وتحرص على المكرمات وتتسابق على الفضائل ذلك جانب يغطى قدرا كبيرا من صورة الانسان العربى فيزرع الاستقرار ويغطى على ظلام الظلم ويجعل للحياة أملا وهدفا وللإنسان قيمة ومكانة . يصور ذلك « قطرى بن الفجاءة » فهو وإن كان قد عاش فى ظل الإسلام إلا أنه من الخوارج الذين كان للجاهلية أثر كبير فى نفوسهم .

أقول لها وقد طارت شعاعاً من الأبطال ويحك لن تراعى
فإنك لو سألت بقاء يوم على الأجل الذى لك لن تطاعى

هذا يوضح لنا أن للانسان العربى حياة يحرص عليها وله قيم غالية إن هو افتقد هذه القيم فقد طعم الحياة ، فهو يضحى من أجل هذه الأمجاد ، فلا يتهم الدارس الجاهلية بأنها قد شاع فيها الظلم وإن كان من شيم النفوس. كما يقول أحدهم :

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفـــة فلعلة لا يظـــلم

فإذا كان الظلم من شيم النفوس ، وإن كانت الجاهلية قد افتقدت الحكومة القاهرة والقوانين الرادعة وإذا سلمنا بأن الظلم يصور جانباً من الصورة الإنسانية فى الجاهلية فلا بد من أن نسلم بأن غرائز أخرى تغطى هذا الظلم وأهدافا وقيما تضبط سير الحياة وتلون قدراً كبيرا من الساحة النفسية مما جعل الإنسان العربى الذى يضحى بحياته حفاظاً على أمجاده وبالمال حفاظاً على سمعته والمال شق النفس من أجل ذلك يقول حاتم مبيناً كيف يوظف ماله ، حفاظاً على كرامته :

إذا كان بعض المال ربا لأهله فانى بحمد الله مالى معبد
يفك به العانى ويؤكل طيباً ويعطى إذا ضن البخيل المصرد

إن حاتماً يجعل للسخاء قدراً كبيراً فى تصوير النفس الإنسانية فى الجاهلية فإذا كان المال يستعبد بعض الشعوب فإن العربى يوظف ماله ليساعد به المأسورين والمأزومين ، ويقدمه طيباً لكل محتاج أو ابن سبيل وحينما يضن الناس يعطى هو . إن السخاء بلونه الزاهى وقيمته الغالية وإيثاره السامى يكاد يكون مركزاً من مراكز القوة فى النفس الإنسانية فى الجاهلية وعليه دار قدر كبير من أدب الجاهليين . شعراً أو نثراً فانهم يبحثون عمن يكرمونهم ويتبعون الناس ليقدموا لهم كرائم أموالهم حتى لو فارقوهم :

ونكرم جارنا ما دام فينا ونتبعه الكرامة حيث مالا

والعربى سخى بماله ضنين بعرضه لذلك كانت العفة غريزة مؤثرة فى العقل الجاهلى تأثيراً شديداً والحفاظ عليها أساس من أسس حياتهم ، وهو يحافظ على جاره ويكرمه ويحفظ غيبته ويصون عرضه فيقول :

يبين الجار حين يبين عنى ولم تأنس إلى كلاب جارى
وتظعن جارتى من جنب بيتى ولم تستر بستر من جدارى
وتأمن أن أطالع حين آتى عليها وهى واضعة الخمار
كذلك هدى آبائى قديماً توارثه النجار عن النجار

هذه العفة ، وهذا الستر وحماية حرم جاره دستور استقر فى صدورهم فحفظوه ، وصبغ حياتهم فاتبعوه جيلا بعد جيل وهديا توارثوه . إنهم يحافظون على الشرف وإنهم يرعون حرمة المرأة ، فهى حين تمر بجوار بيته تمر آمنة لا تستتر بجدار وهى فى فناء خيمتها وأمام بيتها يمر عليها جارها وقد وضعت خمارها عن وجهها مطمئنة ، لأنه لا يتبعها نظره . ويفخر الشاعر الجاهلى بأنه ليس ساقط النفس يتصيد النساء :

ولا ألقى لذى الودعات سوطى أداعبـــه وربتـــه أريد

إنه ليس خبيثا يداعب الرضيع ليلعب بأمه .

وبذلك تكون العفة غريزة تملك قلب العربى وتحتل فى عقله مركزا ثابتاً وغريزة وراثية جبل عليها من آبائه انضمت إلى السخاء لتكون معالم تضبط الحياة فى الجزيرة وتحد من الظلم ثم يكون الوفاء أساساً من أسس الحياة الجاهلية . فالسموءل يفتخر بوفائه للكندى الذى ترك عنده بعض أدراعه أمانة . ولكن أعداء الكندى داهموا حصن السموءل وبيدهم ابنه أسيراً اقتادوه وهم فى الطريق إلى حصن أبيه السموءل حيث كان يرعى خارج الحصن وخير المهاجمون رب الحصن بين أمرين : أن يخون الأمانة ويسلم الأدرع أو يقتلوا ابنه فاختار الثانية . وقال :

وفيت بأدرع الكندى أنى إذا ما خان أقوام وفيت

وصار هذا الوفاء مجداً تليداً تتوارثه الأجيال مما جعل الأعشى يعيد ذكر هذه الحادثة لأحد أبناء السموءل.

كن كالسموءل إذ طاف الهمام به فى جحفل كهزيع الليل جرار
إذ سامه خطتى خسف فقال له قل ما تشاء فانى سامع حار
فقال : غدر وثكل أنت بينهما فاختر وما فيهما حظ لمختار
فشك غير قليل ثم قال له اقتل أسيرك أنى مانع جارى

حماية الجار هدى يتوارثه الأبناء وترخص الحياة أمامه وهون الثكل فيلون الصورة العربية بلون ظاهر بارز يحد من ظلمات الجاهلية ومن تضارب المقاصد ومن غريزة الظلم .

والعربى حريص على الوفاء لصديقه فى كل الظروف يقول شاعرهم :

وإنى أخوك الدائم العهد لم أحل إذا حال دهر أو نبا بك منزل
وإن سؤتنى يوما صفحت إلى غد ليعقب يوما منك أخر مقبل
ستقطع فى الدنيا إذا ما قطعتنى يمينك فانظر أى كف تبدل

من مجموع هذه الخصائص تبدو النفس الإنسانية فى الشعر الجاهلى سوية واضحة فهى وإن كانت بشرية جبلت على الظلم وإن كانت لا تخضع لدولة ولا لقانون إلا أن الغرائز السامية التى حددناها من إباء ووفاء وسخاء وعفة وعزة وما إليها جعلت للحياة قيمة وصارت دستوراً غرزيا محفوظا فى الصدور يسمو بالحياة ويجعل للانسان كرامة فى هذه الجزيرة حتى فى أحلك فترات حياتها .

* * *

اتجاهات البطولة العربية فى الجاهلية

إذا كانت البطولة العربية لدى الجاهليين جميعا فى مختلف قبائلهم ومناطقهم تحمل الصفات التى حددناها فإنه قد ظهرت اتجاهات لها سمات محددة تركت أثرا كبيراً فى حياة العرب فى الجاهلية وبقى أثرها علامة بارزة فى التاريخ ويعنينا من هذه الاتجاهات ثلاثة :

أولا : اتجاه العبقرية الفردية التى تحول مجرى التاريخ ويمثلها (عنترة).

ثانيا : الزعامة القبلية التى تقود قطاعا من المجتمع وترسم عادات وأعرافاً وقوانين غير مكتوبة تسير عليها القبائل. ويمثل هذا الاتجاه (عمرو بن كلثوم)

ثالثا : اتجاه النزعة الانسانية الخالية عند صعاليك العرب أو رجال الصحراء . أو صعاليك الجبل كما كان يسميهم (عدى بن حاتم الطائى) الذى ورث عن أبيه مفهوما خاصا للصعلكة .

ولنبدأ بالاتجاه الانسانى عند الصعاليك وفكرة الصعلوك التى ظنها البعض أنها الفقر غير دقيقة ، لأنه إذا كان فى أصل اللغة أن من معنى الصعلكة الفقر فإن الظاهرة التى نحن بصددها ليست فقراً عاديا وإنما هو فقر نبيل أو أنسانى فى أصحابه يملكون الأموال الطائلة ولكنهم فقراء . ومن أبرز الأمثلة على ذلك حاتم الطائى الذى ضرب به المثل فى السخاء ولكنه كان يعتبر نفسه صعلوكا ويحدد نظريته فى الصعلكة ونظريته فى المال وفى الهدف من وجود المال وإنفاقه . فنظرية حاتم فى المال أنه عبد لصاحبه يستخدمه لينال به

حسن الأحدوثة وشرف المجد وهو القائل فى هذا المعنى :

إذا كان بعض المال ربا لأهله فإنى بحمد الله مالى معبد
يفك به العانى ويؤكل طيبا ويعطى إذا ضن البخيل المصرد

هذه نظرية واضحة فى الإقتصاد العربى فى الجاهلية ، المال من أجل الأغراض الإنسانية النبيلة : يحرر به الناس ويشترك الفقير والغنى فى الأكل منه ويفك به الأزمات التموينية حينما تحتكر البخلاء ويشتد الغلاء وتستحكم الأزمة الاقتصادية فالغنى الكريم يعطى حين يضن البخلاء. ومن سمو هذا الشعر أنه صادق على واقع حياة حاتم . هذا الإرتباط بين الأدب والمجتمع درجة من السمو أصبح الناس الآن لا يكادون يتطلعون إليها فى آمالهم لغلبة الجشع فى نفوس البشر أجمعين. هذه النظرية فى استخدام المال فى إصلاح المجتمع وفك الكرب وحل الأزمات ونظرية عبودية المال لصاحبه أروع وأسمى وأجدى وأنفع لأنها واقعية ليست دعاء ولا مجرد شعار أجوف .

والنظرية الثانية لحاتم نظريته عن الصعلوك وعن مفهومه فى بيئته . يقول:

لحا الله صعلوكاً مناه وهمه من العيش أن يلقى لبوساً ومطعماً
ينام الضحى حتى إذا نومه استوى تنبه مثلوج الفؤاد مورما
مقيما مع المثرين ليس ببارح إذا نال جدوى من طعام وجثما
ولله صعلوك يساور همه ويمضى على الأحداث والدهر مقدما
فتى طلبات لا يرى الخمص طرحة ولا شبعة إن نالها عد مغنما
إذ ما رأى يوما مكارم أعرضت تيمم كبراهن ثم صمما
فذلك أن يهلك فحسن ثناؤه وإن عاش لم يقعد ضعيفا مذمما

الصعلكة فى نظر حاتم نوعان : صعلكة بالمعنى اللغوى ، أو بمعنى أدق ببعض مفهوم المعنى اللغوى وهى الفقر عموما أيا كان سببه : الكرم أو العجز . أما الصعلكة فى مفهوم البيئة العربية الجاهلية فهى ليست ذلك المعنى الذى

يأنف منه (حاتم) والصعاليك جميعاً ويسخرون منه وهو الصعلوك الورم نؤوم الضحى خادم الأغنياء ذليل النفس الذى إن عاش لايحس به أحد وأن هلك لايذكره أحد همه أن يشبع ويلبس وينام ولاعزة له ولاكرامة وما أبعده عن الأحداث والمكرمات . إن الصعلكة بهذا المعنى سبة عند صعاليك الجاهلية وهم يريدونها بالمعنى الثانى وهو (فتى الطلبات) رجل المكارم متحدى القدر . هذا هو مفهوم الصعلكة إصطلاحياً عند العرب وقد أخطأ الكثير من الدارسين حينما صوروا الصعاليك بأنهم هم الفقراء فقط وما أدرى أيعد حاتم من الفقراء فقراً عادياً أم من الصعاليك (فقراء النبل) ؟ ويوضح أبو الصعاليك (عروة بن الورد) الصعلكة بمعنى الذلة والفقر . والصعلكة بمعنى الظاهرة الإجتماعية المنتشرة فى أيامه فى الجزيرة العربية والتى أبرزتها آداب الصعاليك وتغنى بها شعراؤهم يقول :

لى الله صعلوكاً إذا جن ليله ... مصافى المشاش آلفاً كل مجزر
يعد الغنى من دهره كل ليلة ... أصاب قراها من صديق ميسر
قليل التماس المال إلا لنفسه ... إذا هو أضحى كالعريش المجور
ينام عشاء ثم يصبح قاعداً ... يحث الحصى على جذبه المتعفر
يعين نساء الحى ما يستعنه ... فيضحى طليحا كالبعير المحسر
ولله صعلوك صفيحة وجهه ... كضوء شهاب القابس المتنور
مطلا على أعدائه يزجرونه ... بساحتهم زجر المنيح المشهر
وإن بعدوا لا يأمنون إقترابه ... تشوف أهل الغائب المتنظر
فذلك إن يلق المنية يلقها ... حميداً وأن يستغن يوما فأجدر

يلح أبو الصعاليك على المعانى التى ألح عليها جواد العرب (حاتم الطائى) مبرزاً ملامح الصورة واضحة بعيدة الفروق بين صعلوك المشاش خادم النساء وصعلوك التحدى الذى يهاجم قبائل كاملة بمفرده فإذا ما هربوا منه وخلوا له المنطقة حملوا فى قلوبهم الرعب منه وهو بين حالتين أن يغنى ويكثر ماله

فأجدر به رجل الصحراء يستعبد المال فى الملمات وإن يلق المنية يلقها حميداً

بهذا قصدنا إبراز صورة الصعلوك من بيئته وعلى لسان قادته حتى يبدو واضحا خطأ من يطلقون صفة الفقر على الصعاليك ، وخطأ من يظنون أنهم مجرد لصوص ناظرين إلى الأشكال غافلين عن الحقائق فهم فقراء نبلاء. ولصوص شرفاء ونحاف أسود يقول عروة مفتخراً بضآلة جسمه .

وإنى امرؤ عافى إنائى شركه ... وأنت امرؤ عافى إنائك واحد
أتهزأ منى أن سمنت وأن ترى ... بجسمى شحوب الحق والحق جاهد
أفرق جسمى فى جسوم كثيرة ... وأحسو قراح الماء والماء بارد

ذلك هو نفر أبو الصعاليك نحيف أسد ، غنى لا يجد ما يأكل ، صاحب مال يبيت على الطوى تسكفيه حسوات من ماء يعيش عليها تاركا ماله لتنمو به أجساد عياله ، وعياله هم كل الفقراء والمظلومين فإذا ما نازعته زوجه صاح فيها :

أقلى على اللوم يا ابنة منذر ... ونامى وإن لم تشتهى النوم فاسهرى
ذرينى ونفسى أم حسان إننى ... بها قبل أن لا أملك البيع مشترى
أحاديث تبقى والفتى غير خالد ... إذا هو أمسى هامة فوق صير

بهذا يوضح أبو الصعاليك نظرية الصعلكة أو الرحولة النبيلة فى الصحراء ويشرح سبب نحافة أجسامهم وفقر أيديهم وبيوتهم وخلوها من المال ويتولى صعلوك آخر شرح لصوصية الصعلكة فهى ليست لصوصية بالمعنى العام وإنما لصوصية سامية شريفة أو لصوصية الصعلكة :

وإنى لأستحيى من الله أن أرى ... أجرر حبلا ليس فيه بعير
وأن أسأل النذل اللئيم بعيره ... وبعران ربى فى الخلاء كثير

إنهم يفهمون أن المال له مهمة ووظيفة اجتماعية فالمال عبد للقيم

الاجتماعية السامية . إنهم يسرقون لتسمو الإنسانية كما أنهم جاعوا لتسعد البشرية وليبقى الذكر للقيم الإنسانية النبيلة ولا يعرفون للحياة معنى بغير أن يعز الناس جميعاً فى إيثار نبيل قل أن يعرف مثله فى الأوطان والأزمان فيقول قائلهم :

وإنى لأخشى شجاع البطن قد تعلمينه ... وأوثر غيرى من عيالك بالطعم
مخافة أن أحيا برغم وذلة ... وللموت خير من حياة على رغم

وبينما كان عروة بن الورد أبو الصعاليك فقد كان أمهم (تأبط شراً) الذى اشتهر بسرعة العدو فكان يسبق الفارس على قدميه كان عبقرى الذكاء واسع الحيلة ، يطول بنا الأمر لو ذهبنا إلى شعره لنرى فيه صورة الأم الذكر تطعم عيالها قليلا قليلا وعيالها هم رجال الصحراء من الصعاليك .وكيف كان يحتال ضد أعدائه مهما اجتمعوا. وله قصيدة رائعة تحكى حيلته البارعة حينما صعد إلى قمة الجبل يشتار العسل وقمة الجبل صخرية حادة منحدرة انحداراً مهلكاً وليس لها إلا طريق واحد سده الأعداء وتكاثروا عليه وأحاطوا به من كل جانب فكانت سرعة البديهة عند أم الصعاليك أن أسال العسل على الصخرة من جهتها الحادة ونزل بجسده من على الصخرة وسخر من أعدائه .

فالصعلوك عبقرى ذكى لا يعدم الحيلة عداء ماهر ، معه عدة الأعرابى التى أشرنا إليها :

متى تجمع القلب الذكى وصارما ... وأنفاً حمياً تجتنبك المظالم

ولذلك يصور الشنفرى أمه (الصعلوك) :

وأم عيال قد شهدت تقوتهم ... إذا أطعمتهم أو تحت وأقلت
وتأتى العدا بارزاً نصف ساقها ... تجول كمير العانة المتلفت
إذا فزعوا طارت بأبيض صارم ... ورامت بما فى جفرها ثم سلت
حسام كلون الملح صاف حديده ... جراز كأقطاع الغدير المنعت
تراها كأذناب الحسيل صوادراً ... وقد نهلت من الدماء وعلت

هذه صورة أم الصعاليك كما يصورها من صور البيئة العربية فى شعره ومن أصبح علامة على الخصائص العربية فقد حملت إحدى قصائده وهى لاميته اسم (لامية العرب) وهو الشاعر الجاهلى الشنفرى الذى ظلت الأمم غير العربية تحسد العرب على هذه اللامية لرسمها للشخصية العربية رسماً واضحا ساميا عزيزاً وظل الأعاجم يحلمون وتمضى القرون ولا يجدون ما به يحلمون حتى أتى الطغرائى فنظم لهم لامية العجم فتستريح نفوسهم بعض الراحة . لقد أبرز الشنفرى غرائز النفس العربية وجهر بهمسات أفئدتها وأبرز مكنون صدورها وهمسات وجدانها ومن أبرز ذلك عند الشنفرى العفة فله نظرية دقيقة نحو الجمال ونحو المرأة تبرز العفة العربية فلو سألناه لماذا اخترت رفيقة حياتك ألمالها أم لجمالها أم لحسبها ؟! يجيب :

لقد أعجبتنى لا سقوطا قناعها إذا ما مشت ولا بذات تلفت
تبيت بعيد النوم تهدى غبوقها لجارتها إذا الهدية قلت
كأن لها فى الأرض نسيا تقصه على أمها وإن تكلمك تبلت
أميمة لا يخزى نثاها حليلها إذا ذكر النسوان عفت وجلت
إذا هو أمسى آب قرة عينة مآب السعيد لم يسل أين ظلت

هذه هى نظرية الجمال وقيمة الأسرة السعيدة عند صاحب لامية العرب لقد تعلمت زوجه منه . العفة والحياء والسخاء والسمو عن الدنايا والبعد عن النميمة والغيبة والدنس : صورة تتحدى جاهليات القرن العشرين وتتحدى مجلات النساء وبيوت الأزياء فلو ذهبنا إلى اللامية نفسها ونود لكل دارس أن يقرأها كاملة لعلها توقظ فى دمائه نخوة العروبة ولعله يربى عليها من يوكل بتربيتهم . ونحن هنا نكتفينا بعض الشواهد من اللامية التى تبرز الملامح العشر التى حددناها سابقاً للشخصية العربية فى الجاهلية من إباء . ووفاء ، وعزة ، وعفة ، وسخاء ، وكرم ؛ وفدائية ، وحرية ، وإيثار وأمل سعيد إلخ نلمح هذا الإباء فى مطلع القصيدة :

أقيموا بنى أمى صدور مطيكم فإنى إلى قوم سواكم لأميل
فقدحت الحاجات والليل مقمر وشدت مطايات المطايا وأرحل
وفى الأرض منأى للكريم عن الأذى

وفيها لمن خاف القلا متحول

أن الشنفرى يتبرأ من أخوته نسبا حينما أقاموا صدور مطيهم راحلين لحاجتهم ومعاشهم يتبرأ من نسبهم ويتبرأ من عاداتهم وأعرافهم ، لأن له طريقا آخر : طريق العزة التى لا تعرف موطنا فالأرض كلها موطنه وهم يسيرون ليجمعوا المال ليأكلوا كما تأكل الأنعام أما هو فيقول :

وإن مدت الأيدى الى الزاد لم أكن بأعجلهم إذا أجشع القوم أعجل
وما ذاك إلا بسطة عن تفضل عليهم وكان الأفضل المتفضل

فهو لا يمد يده إلى الطعام تفضلا وعزة وسموا ؛ يجوع ليرقى وحين نسأله إذا كنت قد تركت بنى أمك وعصبتك فمم من تعيش ومن يكفيك فقد أهلك وعشيرتك ؟ يجيب :

وإنى كفانى فقد من ليس جازيا بحسنى ولا فى قربه متعلل
ثلاثة أصحاب : فؤاد مشيع وأبيض أصلت وصفراء عطبل

هؤلاء هم رفاقه الذين اكتفى بهم عوضا عن عصبته وقبيلته فؤاد ذكى ، وسيف أبيض صارم ، ورمح متينة طويلة . أما لو سألناه عن أهم السمات التى يفتخر بها يقول :

ولست بعل شره دون خيره ألف إذا ما رعنه أهناح أعزل

فهو ليس علا ضعيفا يحتمى بقبيلته أو بمجده القديم كما يفعل العرب الآن. فهو يقدم الخير دائما . أما الضعاف المعتمدون على جاههم القديم فهم يقدمون

الشر على الخير . وهو دائماً معه عدته (عدة الصعلكة) ليس مثل من يلتف ليحمى نفسه من الحر أو القر فإذا ما هو جم يبحث عن سلاحه - أعزل - وهو يتحدى الجوع يقول :

أديم مطال الجوع حتى أميته وأضرب عنه الذكر صفحاً فأذهل
واستف ترب الأرض كى لا يرى له على من الطول امرؤ مطول

وحين نسأله لعلك لا تجد ما تأكل فالأمر عجز لا صبر يجيب :

ولولا اجتناب الذام لم يلف مشرب يعاش به إلا لدى ومأكل

فعزة نفسه وبعده عن المذمة تجعله وهو الذى عنده كل أصناف المأكولات والمشروبات يجوع ويستف ترب الأرض عزة . ولعله كان يقتدى بالأنبياء سموا على الدنيا التى

جاع فيها الأنبياء كرامة وامتلأت فيها بطون البهائم

يحدثنا الشنفرى عن نظرية الجوع عنده فيقول بدقة ووضوح :

ولكن نفسا مرة لا تقيم بى على الضيم إلا ريثما أتحول

إنه جوع النفس المرة . والنفس العزيزة فإذا ما عيره البلهاء بأنه فقير لا مال له وأنه متلف إذا وجد مالا ؛ اعتز بالشمال العربية الأصيلة فقال :

وأعدم أحيانا وأغنى وانما ينال الغنى ذو البعدة المتنزل
فلا جزع من خلة متكشف ولا مرح تحت الغنى أتخيل

والشنفرى يسمو فوق كل صغيرة فهو ذو نفس سامية مطمئنة ثابتة لا يبطره المال ولا تكسر عزته الحاجة ولا يستخفه الغضب والجهل ولا يعرف النميمة ولا الدس يوضح هذا الثبات فى قوله :

ولا تزدهى الأجهال حلمى ولا أرى سئولا بأعقاب الأقاويل أنمل

هذه هى النفس العربية فى جاهليتها بين شعاب جبالها وفسيح صحرائها نفس حليمة بلغت من الحلم مرتقى صعبا لا يهزها الجهل ولا تستخفها الحاجة فيسأل الناس ؟! إن الموت أقرب إليه من أن يسأل، ولا يقطع الوقت بالأحاديث الفارغة ولا يعرف لسانه النميمة لأن المرقبة العالية التى كان يكمن فيهـــا الصعلوك فوق قمة الجبل حذراً من أعدائه علمته أن تعيش نفسه فى مرقبة إنسانية تساوى هذا المسكن السامى فوق الجبل فهو مرتفع حسيا ومرتفع نفسياً .

ثانياً : العبقرية الفردية :

ونختار لها عنترة بن شداد بطلا عسكريا ومصلحاً اجتماعياً . استطاع بعبقريته أن يغير أسس المجتمع الفكرية والاجتماعية ولا بد أن ننبه إلى أمرين لهما خطرهما بهذا الصدد .

وأول هذين الأمرين الواقعية الحقة التى يصبح الأدب فيها نبض الحياة ويصبح النظر الفلسفى الاجتماعى واقعا يحول المجتمع ومثلا حقا يسهل الاقتداء به ، ويلتحم الأدب بمجتمعه التحاماً مباشراً حتى الخيال فى قصائدنا الشعرية مع عنترة بالذات خيال حى واقع متحرك يتخذ من الصحرا. المفتوحة مكان الحركة. وآنف أن أقول مسرح الأحداث لأن الحياة بواقعيتها أمر والمرح بشطحاته أمر آخر .

والخيال عند عنترة وغيره من شعرائنا العرب الجاهليين خاصة خيال واقعى يؤلف من الموجودات صورة يمكن أن توهب الحياة إنه ليس وهما ولا شطحات فكر ولا نظريات فلاسفة يعيشون فى أبراجهم العاجية .

ولو تأملنا الثورة الإصلاحية التى حررت العبد الأســـود « عنترة » وحررت أغربة العرب فى الجاهلية بهزة فكرية ولمسة وجدانية شاعرية من عنترة . فحينما أصيبت القبيلة فى كرامتها وهزمت ولجأ إليه الناس ليدافع عن

الشرف والكرامة فاستنهضه أبوه « كر يا عنترة : وصاح صيحته التى غيرت المجتمع وزلزلت التقاليد وأن العبد لا يحسن الكر وإنما يحسن الحلاب والصر فكان التغيير الذى حرر العبيدوحطم القيود وعدل الأعراف (كر وأنت حر)

نطلب من الدارسين أن يتأملوا هذا التغيير فى جاهلية العرب الذىبه تحرر العبد وأصبح قائداً عسكرياً كبيراً وزعيما اجتماعياً له خطره ، ونقارنه بمحرر عبيد أمريكا « إبراهام لنكولن » الذى نادى بتحرير العبيد وحاول أن يعطيهم صفة الإنسانية ولو من الدرجة الثانية إبان الحرب الأهلية الأمريكية ولمجرد نداء لم يتم واقعيا (إذ لا تزال أمريكا تشهد الصراع العنصرى) جعلوا صاحبه بطلا تاريخيا وأسطورة تتوارثها الأجيال فماذا نقول عن عنترة ؟

وهل هناك أدب وشعر يليق بأن يكون عالمياً وإنسانيا وواقعيا من معلقه عنترة وشعره وهل عندهم من أدب غير مجرى التاريخ وحرر العبيد ؟ فليخرجوه لنا إن كانوا صادقين .

هذه هى واقعية الأدب العربى تسايرها إنسانيته .

فأدب عنترة يتسم بالإنسانيه وبالقلب الذى يسع النـــاس ويشفق على الضعفاء ويحترم حتى منافسيه فى الحروب وبذلك تكون الصفة الإنسانية هى الخاصة البارزة الثانية بعد الواقعية فى أدب عنترة .

وقد صور شعر عنترة الخصائص العربية تصويراً مميزاً ، فعنترة فارس يقود القبيلة إلى النصر وشهم يضبط غرائزه ونزواته . وهو بطل فى التوازن النفسى والسمو الفكرى والخلقى وضبط الغرائز وأحد أبطال العفة العرب يقول :

وما تشتكى جارتى غير أننى إذا غاب عنها بعلها لا أزورها

ويقول :

وأغض طرفى ما بدت لى جارتى حتى يوارى جارتى مثواها

هذا الرجل الذى يوقر المرأة ويحترمها ويقف ضعيفا لا يقوى على النظر إليها يتحدى الأحداث ويتحدى أبطال الحروب وهو المنية فى الحروب وهو الضعيف غاض البصر أمام المرأة لا يعرف الخنا .

وأنا المنية فى المواطن كلها والطعن منى سابقة الآجال

هذه هى البطولة حقا التى لا تنسى نفسها ولا تستخفها القوة ولا شهوة النصر ، وعنترة يحمل فى قلبه وفاء لمحبوبته يشغل فكره ويتصدر شعره ويكاد يكلم دار محبوبته ففى مطلع قصيدته نقرأ :

هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفت الدار بعد توهم

تناول النقاد والأدباء هذا البيت كثيرا مستدلين به على بداية الشعر العربى وعلى أن هذه البداية كانت قبل عنترة بكثير . يتنازع النقاد والدارسون فى نظرية بدء الشعر العربى أيصدقون عنترة بأن الشعراء من قبله قالوا تراثا كثيرا من الشعر لا يكاد يترك لعنترة معانى يتناولها متناسين أنهم أمام بطل لا يجحد أمجاد السابقين فهو ليس مثل الأباطرة والفراعنة والحكام المتجبرين يعبدون أنفسهم وقد تمكنت منهم عقدة النرجسية فهم يعملون جاهدين على محو السابقين إذ لا بطل غيرهم وكأن الدنيا لم تلد إلا الزعيم الأوحد .

مثل الفراعنة الذين كانوا يمحون آثار من سبقوهم أو يمحون من الآثر اسماء السابقين ويضعون أسماءهم .

إن عنترة طراز غير هؤلاء فهو وإن كان فى القمة والقائد الذى حول الهزائم إلى انتصارات إلا أنه لا يرى نفسه إلا صغيرا أمام المجد السابق وكأن كل ما جاء به من مجد عسكرى وأدبى ليس إلا قطرة فى مجرى التاريخ الطويل

لذلك كانت هذه الصيحة التى كنا نود للدارسين أن يدرسوها دراسة تليق بنفسية عنترة ومكانته الاجتماعية .

هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفت الدار بعد توهم
يا دار عبلة بالجواء تكلمى وعمى صباحا دار عبلة واسلمى

يقف بالدار محييا داعيا لها بالخير والسلامة لأن له بهـــا إنسانا يشاركه عاطفة إنسانية نبيلة فهو فداء للوطن ولهذه المواقف وليس الأمر أمر سهرة حمراء ، ولا نزوة من نزوات الزعيم وإنما قلوب تنبض بالشعر وفيها مكان فسيح للخلق النبيل وللمواقف الإنسانية :

ولقد نزلت فلا تظنى غيره منى بمنزلة المحب المكرم

هـذا هو الفارس حقا وتلك فروسية العرب تتربع فى قلبه ابنة عمه ويكرمها ويجلها ويعرف منزلتها ولها أسلوبها وحياتها الخاصة ولها عرشها وله هو أسلوبه وحياته الخاصة :

تمسى وتصبح فوق ظهر حشية وأبيت فوق سراة أدهم ملجم
وحشيتى سرج على عمل الشوى نهـد مراكله نبيل المحزم

إن الفروسية العربية عند عنترة تجل المرأة فلا يتخذها سلوة للجنود ولا للهو بها عند الانتصار وإنما لها مجلسها فوق حشيتها الوثيرة ، معززة موفورة الكرامة مصانة العرض لأن فارسها يذود عنها وله هو أيضا حشيته يجلس عليها على جواد أصيل ويتولى هو حصد رءوس الأعداء الذين يحاولون أن ينالوا من كرامة الأهل أو سمعة القبيلة حتى وإن صدت عنه محبوبته :

إن تغدفى دونى القناع فانى طب بأخذ الفارس المستلئم

فهى وإن صدت عنه دلالا وأرخت القناع دونه فهو موكل برأس الفارس الشجاع الذى استعد بلأمة الحرب شاكى السلاح. الفروسية العربية نبيلة كريمة تصون المرأه وتجل عفافها على الرغم من أن الفارس يجب أن يكون معروف المكانة يسمع لسان الذكر الحسن وطيب الثناء عليه .

أثنى على بمـــا علمـــت فإننى سمح مخالطتى إذا لم اظـــلم
فإذا ظلمت فإن ظلمى باسل مر مـــذاقته كطعم العلقم

هذا الإباء وهذا السمو النفسى الذى يصور ملحمة أدبية عربية خالدة. دفعت الشعراء إلى أن يتغنوا به فى قصائدهم ودفعت الأدباء والمؤلفين إلى أن يصدروا به مختاراتهم وأن يسموا به بعض دواوينهم مثل دواوين الحماسة التى تجعل عزة النفس هى قطب الحياة ومدار نبل الفروسية . وتصور الإنسان الوديع الضعيف أمام الضعفاء والنساء أسداً كاسراً إذا تعرضت كرامته لهفوة وينقلب ظلمه إلى باسل شجاع مر المذاق على ظالمه والفارس العربى عنترة قد يعيش مع الناس لهوهم وجدهم وقد يعيش مع الشاربين ويشرب معهم ولكنه حتى فى ساعة الشراب كريم بماله ضنين بعرضه .

فإذا شربت فإننى مستهلك مالى وعرضى وافـــر لم يكلم
وإذا صحوت فما أقصر عن ندى وكما علمت شمائلى وتكرمى

شمائل عربية تعمقت فى النفوس ولونت الوجدان والخيال وسيطرت على الأفئدة حتى وهى سكرى وعنترة وإن لعبت الخمر بعقله وإن ضاع مع السكر لبه يحتفظ بعرضه وبإباء نفسه ومايتلف إلا ماله وإذا صحا من السكر يكون السابق فى الندى والكرم وفى حياطة الشمائل العربية المتأصلة فى النفوس وفروسية عنترة فروسية من يعترف بالفضل لذويه فهو حين يتحدث عن منافسيه أمام محبوبته مفتخراً بعسكريته يذكرهم بكل توقير وإجلال .

يخبرك من شهد الوقيعة أننى أغشى الوغى وأعف عند المغنم

هو يثير المعارك ويعيش داخل أتونها المتوقد لظى لايقود المعركة من خارجها كما يفعل نابليون أو كما يفعل أبطال الحروب الكلامية . عنترة يتحمل لظى المعركة ويستقل لذة النصر وينسى المغنم فهو عنه عفيف أما الذين قابلهم فى المعركة فليسوا أفزاماً بل أبطال كماة .

ومدجج كرة الكماة نزاله لا ممعن هـــربا ولا مستسلم

فنافسه كمى بطل لا يعرف التخاذل ولا الاستسلام عاجله عنترة بهجوم خاطف

جادت له كفى بعاجل طعنة بمثقف صدق الكعوب مقوم

وحين نتعرف الأسباب التى حملت عنترة على أعدائه نعرف أنهم : أسفوا وغدروا أو تناولوا الأمجاد والخصائص العربية بسوء ، أو كفروا بالمثل العربية السائدة فى الجزيرة فى الجاهلية مما جعل قبيلة عنترة تستخفه للدفاع عن هذه القيم بحرب تستعر أوارها وتشتد غمراتها .

نبئت عمراً غير شاكر نعمتى والكفر مخبثه لنفس المنعم

ولقد حفظت وصاة عمى بالضحى إذ تقلص الشفتان عن وضح الفم

فى حومة الحرب التى لا تشتكى غمراتها الابطال غير تغمغم

عنترة فارس نبيل تأصلت فى نفسه سمات النبل العربى والرحمة على كل حى ويكاد عنترة يلتحم نفسيا مع جواده ويكاد يكلمه ليعلمه الإباء والفدائية العربية يقول :

فازور من وقع القنا بلبانه وشكا إلى بعبرة وتحمحم

لو كان يدرى ما المحاورة اشتكى ولكان لو علم الكلام مكلمى

هذا هو عنترة فى تعاطفه النفسى مع فرسه ، وتلك إحدى سمات الفروسية العربية وميزات الشعر العربى الذى يستنطق الجماد ويتعاطف مع الحيوان ويشخص الأحداث ويبعث فى العمل الأدبى حياة وحيوية ويجعل هذا النبل العربى والتضحية من أجل المبادىء هدفا وشعاراً تسعد به النفس وأملا يرنو إليه الأبطال :

ولقد شفى نفسى وأبرأ سقمها قيل الفوارس ويك عنترة أقدم

بل إن النبل العربى والتضحية بالنفس يخالط مخيلة الانسان للعربى ويز

وجدانه فيحرضه على نصيبه من هذا المجد ويتمنى الحرب التى ترفع من قيمة الإنسان وتمحو من الحياة شاتمى الأعراض غادرى العهود .

ولقد خشيت بأن أموت ولم تدر للحرب دائرة على ابنى ضمضم
الشاتمى عرضى ولم أشتمهما والناذرين إذا لم أقلهما دمى
إن يفعلا فلقد تركت أباهما جزر السباع وكل نسر قشعم

هذه ملامح من معلقة عنترة ، وشواهد مضيئة على طريق العزة العربية والفروسية النبيلة والحماسة الشريفة وروائع أدبية واقعية لاتزال الإنسانية تتمناها ولا تنالها لصعوبة مرقاها وارتفاع قدرها ومايعترض طريقها من نوازع شريرة وأعاصير الحقد والخبث وأصنام البطولات الفارغة وأدب الفراش وغول الخرافة .

الزعامة القبلية :

من الزعما الذين سجلوا مثلا بطوليا ودونوه شعراً عمرو بن كلثوم الذى اشتهر بالعزة والمكانة فى قومه حتى لقد كان سلطانه أقوى من سلطان الحاكم العربى الموالى للدول القوية فى عصره عمرو بن هند ولقد ضاق ابن هند بقوة سلطان زعيم تغلب عمرو بن كلثوم ، وثبات ملكه وقوة ارتباط قبيلته به وتعجب كيف يسمو عليه معتمداً على قبيلته فقط بينما يقل شأن ابن هند وهو يعتمد على دولة من أكبر الدول فى عصره ، ولقد ظهر ذلك واضحا حينما تساءل هل فى العرب من هو أعز منى وأجيب نعم ابن كلثوم المعتز بحسبه ونسبه وقبيلته فأعمل الحيلة واستضاف ابن كلثوم وأمه وحاولت أم ابن هند الملك أن تستخدم أم الزعيم العربى طالبة منها أن تسقيها فاعتبرتها الضيفة مهانة وصاحت واذلاه وسمع ابنها فقتل الملك وأعلن سلطانه الذى يقهر الملوك مفتخرا بقبيلته وأيامها ساخراً من ابن هند وجهله بقيم الناس وأعراف الجزيرة العربية مناديا .

أبا هند فلا تعجل علينا وانظرنا نخبرك اليقينا
بأنا نورد الرايات بيضا ونصدرهن حمراً قد روينا
وأيام لنا غر طوال عصينا الملك فيها أن ندينا

فهذه القبيلة العربية لا تخضع لسلطان ولو كان يعتمد على أعظم الدول فى عصره وكل تغلبى يفنى فداء لقبيلته وزعامتها وأى اعتداء على أصغر تغلبى يعز القبيلة وأى جهل أو تهديد كلاما أو وعيداً أو فعلا يوجه إلى أى إنسان فى القبيلة يرد عليه بأعنف هجوم .

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وأى ملك مهما كان سلطانه فلا سلطان له على أى فرد من أى قبيله لأن العربى الجاهلى فى الصحراء يعتبر أمر الملك له إهانه إلا عن طريق زعامة قبيلته .

بأى مشيئة عمرو بن هند نكون لقيلكم فيها قطينا

والملك لا بد أن يضبط نفسه فلا يميل هواه مع الوشاة ولا تستخفه كلمة منافس حاقد .

بأى مشيئة عمرو بن هند نطيع بنا الوشاه وتزدرينا
تهددنا وتوعدنا رويداً متى كنا لامك مقتوينا
فان قناتنا ياعمرو أعيت على الاعداء قبلك أن تلينا

إن سلطان القبيلة وقوتها فوق رأس الملوك وقناتها لا تلين لمخلوق وإذا ما اعتز الملك بحكمه وسلطانه وغرته وساوس شياطينه خاب وخسر ، وإذا ما غرته حاشية فإن للقبائل حكما وسلطانا ودولا أشد رسوخا ودساتيراً تحفظها الصدور وتحترمها العقول والقلوب فهى أعز وأقوى وأشد ثباتاً من أعتى الدول . ولقد وهم كثير من الدارسين حينما حكموا على العرب

فى الجاهلية بأنهم همج لا تضمهم دولة ولا تخضعهم حكومة. وسبب وهمهم أنهم ينظرون دائما إلى المظاهر لا إلى الثبات الحقيقى المستمد من الاحترام القلبى ولذلك نجد الزعيم العربى ابن كلثوم زعيم قبيلة تغلب بماله من أعراف ثابتة وسلطان ملك قلوب أتباعه يعتبر نفسه بهذه الحقائق الثابتة هو الحاكم الحقيقى .

فنحن الحاكمون إذا أطعنا ونحن الغارمون إذا عصينا
ونحن التاركون لما سخطنا ونحن الآخذون بما رضينا

هذه هى العزة الحقيقية والسمو النفسى والحسب الذى ليس فوقه حسب ولا ملك وهذه هى الدساتير المطبقة فى كل الأحوال . ولهم مع ذلك شرفهم وعفتهم وحمايتهم للنساء ومفهومهم الخاص للشرف فنساؤهم معهم حتى فى الحرب يقمن بما يناسبهن من أعمال كإطعام الجياد ومساعدة الرجال وتحميسهم والرجل يقدم نفسه فداء لحريمه يوضح ذلك عمرو فيقول :

على آثارنا بيض حسان نحاذر أن تقسم أو تهونا
أخذن على بعولتهن عهداً إذا لاقوا كتائب معلمينا
ليستلبن أفراساً وبيضا وأسراً فى الحديد مقرنينا
يقتن جيادنا ويقلن لستم بعولتنا إذا لم تمنعونا

هذه العفة وهذا التوقير للانثى وصيانتها من أبرز الشيم العربية التى تمتاز بها الأمة العربية منذ جاهليتها ومعها السخاء الذى تتسابق فيه القبائل وزعاماتها

وقد علم القبائل من معد إذا قبب بأبطحها بنينا
بأنا المطعمون إذا قدرنا وأنا المهلكون إذا ابتلينا
وإنا المانعون لما أردنا وأنا النازلون بحيث شينا
وأنا العاصمون إذا أطعنا وأنا الغارمون إذا عصينا
ونشرب إن وردنا الماء صفوا ويشرب غيرنا كدراً وطينا

هكذا يسابق زعيم تغلب القبائل العربية فى العـــزة والكرم وفى سمو النفس والهمة ثم يعلن ترفعه فوق الملوك فلو خضع الناس جميعا لسلطان جبار أعلن زعيم تغلب

إذا ما الملك سام الناس خسفا أبينا أن نقر الذل فينا

علام يعتمد الملك أعلى كثرة أتباعه أم على قوة دولته أم على انتشار سلطانه على الأرض ؟ إن ابن كلثوم يدعى فوق ذلك

ملأنا البر حتى ضاق عنا وماء البحر نملؤه سفينا

وإذا كان الملك يعتمد على السلطة المتربعة فى قمة الهرم تستذل الأمم وترتفع فوق هامة أتباعها وتخضع رءوسهم لتحمل المجد والسلطة لمن فى القمة وحدهم فى مختلف الاتجاهات السياسية إشتراكية كانت أم ديمقراطية فللسلطة كل خير وللرعية كل معاناة فإن الزعامة القبلية تختلف عن ذلك بأنها زعامة خدمة

ويعلن زعيم تغلب وعلى مسامع التاريخ أنه لا يستأثر وحده بالعزة وإنما العزة له ولكل فرد فى القبيلة حتى الرضيع فرضيع تغلب أعز من ملك غسان بل ومن امبراطور الروم الذى يساند ملك غسان .

إذا بلغ الرضيع لنا فطاما تخر له الجبابر ساجدينا

البطولة عند الغرب

للدول الغربية سماتها الخاصة فى أرضها وسمائها وطقسها وما يحيط بها من بحار وجبال. مما ترك أثره على النفس الأوربية فاختلفت عن النفس العربية وكانت النفس الأوربية غامضة غموض جوها ومتقلبة تقلب طقسها وبحارها وألفت الخضوع للآلهة من البشر وغير البشر وأوغلت فى الوهم والخرافة وتعودت على غدر الآلهة وحقدها واستقر فيها نظام الطبقات واعتادت ضياع الشرف وانتشار الفحش وتصادمت الرغبات وعبثت الآلهة بالناس ومستقبلهم وأقدارهم

أوديب

تمثل ذلك بوضوح قصة أوديب ملكا التى نسميها حقد الآلهة ولعنات أقدراها وهذا المثل من البطولة كثرت الكتابة عنه فى كل العصور والاجناس الاوربية كتب عنه من اليونان باسخيلوس وسوفاكليس وبوريبيدس وكتب عنه فى العصور الحديثة فولتير وكورنى وأندريه جيد. وتسلل إلينا معاشر العرب فكتب عنه توفيق الحكيم . والحدث فى عمومه يحكى قصة ملك أنجب طفلا وفرح به ولكن الآلهة أرسلت من كهنتها من يحذره من أن هذا الوليد سيقتل أباه ويتزوج أمه وخضوعاً للالهة أمر الملك بأن يلقى الوليد فى قمة جبل حتى يموت جوعا أو افتراسا لسبع ولكن تأكيد الآلهة الأخرى للملك الأب فينجو الوليد ويسلم للملك فى دولة مجاورة لايجد ولياً لعهده ويشب أوديب ويكبر وتتكهن له الكهنة بأنه سيقتل أباه ويتزوج أمه وتطارده لعنات الآلهة ويتخلص أوديب من هذه اللعنات بأن يترك دولته إلى بلد آخر تخلصاً من الأقدار وفى الطريق يقابله ركب فيصطدم بهم ويقتل قائدهم (أبوه الحقيقى) وعلى مشارف العاصمة الجديدة يرى الشبح المخيف فى جسم أسد وجناحى نسر ووجه امرأة يمتحن كل داخل سائلا عن المخلوق الذى يمشى فى الصباح على أربع وفى الظهر على اثنين وفى المساء على ثلاثة . فأجابها أوديب إنه الانسان رضيعا يحبو وشابا يمشى وشيخا يدب على عصا .

ويغتاظ الشبح ويموت كمدا وتجمع الدولة على أوديب ملكا ويتزوج ملكة البلاد وينسل منها وتخرب لعنات الآلهة . المدينة فتخبرهم الكهنة بأن الذى قتل أباه وتزوج أمه هو سبب اللعنة ويكتشف أوديب الأمر فيفقأ عينيه ويهيم على وجهه كى لا يرى نسله من أمه وتنتحر أمه أو زوجته . هذا ما تمالأ عليه الكتاب فى الغرب قديما وحديثاً وهذا هو هو الحديث وباطله الذى استورده الحكيم وهذا ما يراد بنا فى دراستنا باسم التجديد آلهة تحقد وتكيد وملوك تذل وأمم تطحن تخريبا .

بروميثوس سجينا وطليقا

وأسميها أنا شؤم المعروف هذه الفكرة تكالب عليها الكاتبون قديماً وحديثاً فمن القدامى أسخيليوس ومن المحدثين جوته وشيلى أديب انجلترا الذى يفتخر به الرومانسيون ويعجب به عباس العقاد عندنا . ومن عجب أن يغفل أبو القاسم الشابى فيجعل عنوان إحدى قصائده نشيد الجبار أو هكذا غنى بروميثوس على الرغم من أن قصيدة الشابى المعتز بعربيته تختلف مع أحداث هذه الأسطورة فهو يفتتحها بهذا البيت :

سأعيش رغم الداء والاعداء كالنسر فوق القمة الشماء

أحداث الأسطورة القديمة تحكى أن بروميثوس وهو أحد الآلهة اشفق على الإنسان وأراد أن يقدم له معروفا فسرق النار من عالم الآلهة وقدمها للانسان فحقدت الآلهة على بروميثوس ووكلت زميلا منافساً بتعذيبه بنسر متوحش يأكل كبده طول الليل ثم يعيد الكبد لحالته الاولى ثم تبدأ جولة أخرى من العذاب .

وانتقاما للآلهة من البشر أوعزوا إلى الشيطان أن يأتى بصندوق الرذائل من حقد وغش وخيانة ففعل وفتح الصندوق فتطايرت الرذائل فى العالمين ولكن بروميثوس مد يده وأغلق الصندوق الذى لم يبق فيه سوى الأمل الذى تعيش به البشر على هذا الحقد الإلهى والتخريب العالمى يتربى أجيال الغرب كما يثبت فى وجدانهم أن من يفعل المعروف تطارده الآلهة بعذابها مهما كان سمو خلقه وهذا على الضد من الجاهلى العربى الذى صاح :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس

ويصيح :

أزرع جميلا ولو فى غير موضعه فلا يضيع جميل أينما زرعا

ويردد العوام منا إعمل المعرووف وارمه البحر .

ونؤمن نحن العرب منذ جاهليتنا بالله العادل الرحيم ولايزال إله المسلمين عادلا رحيما

يجزى بالمعرووف عشرات أمثاله ولو كان كلمة طيبة « قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى » .

ومع هذا لا أرى داعيا للمعركة السخيفة التى يثيرها أعداء المسلمين مدعين أن إله المسلمين واحد وهو جبار وأن المسلمين فى تقواهم يخافون انتقامه وأن التثليث والخرافة والشرك فى قلوبهم أحب من النور الإسلامى .

وتتقبل العقول الساذجة من المسلمين ومن دعاتهم هذا الكيد الشيطانى فيحاولون الرد . والعجيب أنهم هناك تطحنهم لعنات آلهتهم ونحن تسعنا رحمات ربنا مهما أسرفنا .

« يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم » .

والرسول يصور فرحة الله بتوبة عبده المذنب بأنها أشد من فرحة الوالدة حين يعود ولدها الغائب .

بحمالون

أو ما أسميه الفنان المحطم وهذه بطولة اتخذها الناس فى الغرب مثلا يحتذى فكثر الكاتبون عنها من اليونان حتى عصرنا فمن كتب عنها من اليونان أوفيد ومن المحدثين الانجليزى وليم شوينك وجون مارستون وبرناردشو ومن كتب عنها من العرب توفيق الحكيم .وهى تحكى أن فناناً بارعاً صنع تمثال جميلا وتمنى أن يتزوج امرأة تشبه هذا التمثال فعاقبته إلاهه الجمال

إذ بعثت الروح فى تمثاله الذى صنعه بيده و الذى أصبح إنساناً سوياً وتزوجها الفنان . ولكن لما مارست الحياة رآها قبيحة ونفر منها وحطمها .

هذه بعض مثل البطولة المثالية فى الغرب البطولة التى زرعت اليأس والانتحار عندهم والتى جعلتهم يهربون من الدين ومن الآلهة وجعلت بعضهم يحصرون سلطة الدين ويحاولون إبعادها عن الحياة . وبعضهم يلحد ويحقد على الدين . وعلى كل فهذا لا يناسب الشخصية العربية واستيراده خطل وخطر على العقل العربى فيه السم القاتل ولن يخفف من سمومه بعض التعديلات الطفيفة بأن يستبدل توفيق الحكيم بدل الآلهة الكهنة .

ومن ثم فنحن نرى وجوب دراسة البطولة العربية وتوضيح سمات الشخصية العربية ومورايثها ثم مقابلتها بهذه الظلمات المخربة والأحقاد التى تنشر الفساد والأديان الباطلة التى تنشر الدمار والخراب ليميز الله الخبيث من الطيب ، وليسطع نور الاسلام فيخرج الناس من عبادة الخلق إلى عبادة الخالق ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام . وليعز الناس جميعاً ويسعدوا فتتبدد ظلام القلق وتنحل العقد النفسية ويسطع نور الله « ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور » .

د / محمد عبد الرحمن عبد الله المسلوت